بیســـان

info@darak-egy.com
02 24832669-010 27251915
51 ب شارع النزهة – من امتداد رمسيس – القاهرة.
جميع حقوق الطبع والتوزيع محفوظة للناشر.

بيسان

اسم المؤلف: تسنيم التلاوي

تصميم الغلاف: أسامة علام

تدقيق لغوي: سارة صلاح

رقم الإيداع: 2021/13491

الترقيم الدولي: 978-977-6634-65-7

الطبعة الأولى: 2021

تسنيم التلاوي

بيســـان

ما بين الحب والحرب

رواية

دارك
للنشر والتوزيع

إهداء

إلى الحروفِ المُبعثَرة بين صفحاتِ الكتب، إلى الكلماتِ المكبوتة في صدورنا والتي لم تخرج إلا بَوحًا للسطور، إلى الدموعِ المُتساقِطة على هيئةِ حروف، وإلى الأسرارِ المُخَبئة في بواطنِ الحكايات، إلى الاعترافاتِ والخطايا والهزائمِ والانتصارات، وإلى قصتنا والمرات الأولى من كلِّ شيء، إليكَ، وأخيرًا إلى الكتابة؛ ستبقين على الدوام طوق النجاة لكلِّ الحالمين والغارقين، والشاهد الوحيد على خلجاتِ القلب!

(تنويه قبل البدء في القراءة):

لـن أتحـدث هنـا عـن أرضٍ بعينهـا أو شـعبٍ بعينـه؛ فأنـا أُخاطِـب بهـذه الروايـة الإنسـانية، أتحـدثُ بقلـوب المُسـتضعفين وأدافـعُ عنهـم بمـا ملكـت يمينـي؛ ولا أملـكُ سـوى الكتابـة عنهـم ولهـم، هـذه الروايـة صـوتي وصوتكـم وأصـداء أرواحكـم، أشـعرُ بكـم وأتمنـى أن يصـل أنـين قلوبنـا ذات يـومٍ للعـالم، كُلّ العـالم!

إذًا لـن أُسـمي أماكِـن أو دُول وسأُقسِّـم العـالم أجمـع إلى ضفتـين؛ شرقيـة، وغربيـة.

(الفصل الأول)

(1)

الأمـر أشـبهُ بالأحـلام؛ الفسـاتين الورديـة لأمـيراتِ ديـزني، قـوس قُـزح بعـد أول إمطـارٍ في فصـلِ الشـتاء، غـزل البنـات الشـبيه بالغيـماتِ المُنتَفِخـة الخَجِلـة قُرمُزِيـة الخَدّيـن، الأُرجُوحـة المُتَدليـة مـن السـحابِ المُقفَـاة بـوردِ البنفسـج، صناديـق الموسـيقى الكلاسـيكيةِ المُحـلاة، الألـوان الخزفيـة ذات الانعكاسـات، كل مـا هـو خُـرافيّ ومُفـرِط في الجـمال، مـن فـرط جمالـه لا نصـدِّق أنـه حقًّـا حقيقـي، نمـضي ونحـن خائفـين مـن حلـولِ تلـك النقطـة المُحتَمـة التـي يتـلاشى مـن بعدهـا، الأمـر أشـبه بأحـلام الفـردوس؛ لا وجـود لهـا في الواقـع!

**

«نحـنُ هنـا إذا وقعنـا في الحـبِّ لا نمتلـك توقُّعـات عظيمـة تتجـاوز المـوت؛ فهـو النهايـة المُحتَّمـة لـكل قصـة حـب شـهدتها أرضنـا، يـزداد يقينـي بهـذا يومًـا بعـدَ يـومٍ كلـما تطلَّعـتُ إلى أمـي؛ لمسـة مـن الحـزن والفـزع يكتنفـان وجههـا في آنٍ، أحيانًـا لا أجـرؤ عـلى ملامسـة وجههـا حتـى لا أقـع بأنامـلي عـلى تجاعيـد حفرهـا العمـر بعنـف، أخـاف أن أسـأل نفـسي عـمّا شِـهدته حتـى تعلـو وجنتيهـا أولى خطـواتِ الشـيب وهـي لا زالـت في مُقتَبَـلِ العُمـر؟! كلـما أمعنـت النظـر لعينيهـا هالنـي اتسـاع سـوادهما والـذي يـكاد مـن شـدة سـطوته يخفـي لونهـما الرمـادي الأصـلي، وكأن هـذا الأخـير وجـد

فقـط كخـطٍ كاسرٍ لرتابـة الأبيـض وكآبـة الأسـود، وكأنـه لـون لا ولـن ينبـئ عـن شيء سـوى الانطفـاء ومزيـدٍ مـن سـنوات القهـر، أظـنُّ أن عينيهـا أعلنتـا الحِـداد عـلى كلِّ شيء بمـا في ذلـك أنـا وأخـي الصغـير (جـواد)؛ فمنـذ أن جاءنـا خـبر استشـهاد أبي تحـت الأنقـاض لم أرَ في عينيهـا بصيصًـا وحيـدًا للأمـل، لم أرَ فيهـما ولـو طيفًـا واهنًـا لحلـول الضـوء، سُـلِب منّـا مـا سُـلِب ولم نعـد نمتلـك مـن الحيـاة سـوى التشـبث ببعضنـا البعـض لكننـا رغـمًا عـن كل شيء نحـاول، وكاتفـاقٍ غـير مُعلَـن بيننـا لا يفـارق أحدُنـا الآخـر وكأننـا نريـدُ مـن داخلنـا إذا حـلَّ المـوتُ ألا يأخـذ منَّـا ويُبقـي ولـو فـردًا، لا نريـد أن يعـاني أحدُنـا فزعًـا جديـدًا بمفـرده أو حزنًـا مميتًـا دون كتـفٍ يهـوِّن عليـه، نفكـر مـاذا إن خذلَنـا المـوت وتخيَّر منَّـا مـا اشـتهتهُ نفسـه وأبقـى مـا جـزِع عنـهُ لبعـض الوقـت؟! كيـف لِمَـنْ بقـي أن يحيـا هكـذا بـلا أيّ شيء؟!..

كنـت أراقـب أمـي بعينـين شـاخصتين تعلـو شـفتي ابتسـامةٌ واهنـةٌ حتـى لا يسـاورها القلـق إذا مـا لاحظـت نظـراتي المُتفحِصـة تلـك..

أغلقتْ للصغيرِ سُترته الصوفية ثم حملتْه وهي تبتسم لي قائلة:

- لنذهب.

بادلتُهـا نفـس الابتسـامة الراضيـة، ولكنـي شـعرتُ حينهـا بغُصـةٍ قسـمت روحـي حتـى كـدتُ أجتَذِبهـا مـن ذراعهـا وآخذهـا إلى صـدري وأضمهـا وأنـا أتوسـل إليهـا ألا نـبرح منزلنـا اليـوم، لكنهـا بـدَّدَت مـا اعـتراني مـن خـوفٍ لمـا عـاودت جملتهـا مضيفـة بنـبرة متحمسـة:

- أنـا سـعيدةٌ لأنّي أبـذلُ مـا بوسـعي لأُنفِّـذ وصيـة والِدكـما -رحمـه اللـه- لقـد رآكـما دومًـا عظيمـين، أراد أن تبلغـا شـيئًا لم نسـتطع أنـا وهـو بلوغـه...

قطعـتْ حديثهـا بثـوانٍ مـن الـشرود، ثـم أكملـت بنـبرة خافتـة وهـي تقبـض عـلى معصمـي لتحثنـي عـلى النهـوض متطلعـة إليَّ:

- ربما لم أفهمهُ وقتها ولكنّي الآن أحاول، لذا يجب أن نكمل ما بدأه -رحمه الله- فأنتم أمانته لدي.

أنهتْ حديثها وخرجنا ثلاثتنا من البيت مُتَّجهين إلى منزل معلمنا الشيخ (مختار التميميّ) لطالما لمسَ الرجُل شيئًا عميقًا في قلوبنا أعمق من أن نتخطاهُ دون أن نحتذي به، وعلى الرّغم مما أخذته الحرب منه لم يبخل علينا أو يستسلم لعجزه إزاء ما خسره بسببها؛ فقد ودَّع شيخنا على مرأى من عينيه كل شيء بداية من ساقيه وانتهاءً بزوجته وولديه، لم يتبقَّ له سوى عِلمه والقرآن الذي حفظه فهو لهما ولأجلهما يحيا فنراه يحرص بكدٍ ودأبٍ على نشره فينا -صغيرنا وكبيرنا- ومن ثم الأخذ بيدنا للإيمان القلبي والعقلي.

تعطلت مدارسنا منذ فترة وبقي لنا أنقاضها، ورغم أنّها ليست بالفترة الطويلة إلا أنها تمر شديدة الثقل علينا، فقد كان التعليم أحد المسكنات الخفيفة لآلامنا فهو بمثابة الأملِ والحلم للخروج من هذه الأرض أو إنقاذها، وبهذا يُعدُّ الشيخ (مختار التميميّ) هو ملاذنا الوحيد لنفقه ولو الكفاف من علومِ الدنيا والدين.

وصلنا معًا إلى الساحة العامة حيث يتكدس أكثر اللاجئين؛ فهنا ترى الباعة الجائلين بسلعهم البالية التي لا ولن تجدينا بنفعٍ، وترى العجائز مُتَحلِّقين في دوائر يتبادلن فيما بينهن الحديث حول الهدنة والحرب وأشياء أخرى يطمحن لتغييرها وربما لنسيانها بحسب ما يقتضي الوضع، وأيضًا الأطفال في كل مكانٍ منهم الرائح والغادي، اللاعب واللاهي، الخائف والمشاغب، والحالم، كان هناك شيء وحيد يجمعهم وهو أنَّ كل واحدٍ منهم سُرِقت طفولته منه فإمّا أن نولدُ شيوخًا أو عجائز على هذه الأرض..

شيء آخر أضيفه بجانب ما قصصتُه عليك، نحنُ هنا قسمان، أوّلنا: ساخطٌ على كل ما يتّصل بالمحتل وإن كان سيفقد في المقابل قوتَ يومه؛ فالمهم والأهم أن ينقطع تمامًا عن التواصل مع الغزاة بأي شكل.

وثانينا: يعملُ في المؤسسات المَدَنية والتي تُديرُها حكومة الاحتلال تحت إشراف مراقبين مع قوانينٍ صارمة مفروضةٍ على الجميع كعدم السماحِ بالكلام أو تبادلِ السلام، فإن أردت أن تحيا شريفًا ميسورَ الحال تحظى ببعض النقود بين يديك لِتكفي أهلك وبيتك الحاجة والسؤال؛ عليكَ أن تعمل مثل الآلة بلا ذَرة شعور، بعد تتبُّع القوانين بحذافيرها في عملك وإلا سيقع العقاب دونما شك، لكن ليس عليك وحدك بل أنتَ وكل زملائك لأنهم سكتوا وتغاضوا عنك فيكونون بذلك منحوا أنفسهم دور المُحرِّض على التمرد ومخالفة الأمر، ربما يُقتَّلون جميعًا للحظتها وربما يعذبون شهورًا وأعوامًا دون أن يحظوا بفرصة الموت، على كلٍ جميعنا هنا مرضى نفسيون نعاني من الاكتئاب والقهر، ولن تجد بيننا معافى وحيدًا، لا تشفق علينا ما دمتَ لن تمُد لنا يد العون، فحينها لن تجدينا شفقتُكَ سوى مزيدٍ من الذُّل، إن كنت حقًّا ترغب في تقديم شيءٍ فيكفينا أن تبصرنا بقلبك، وتنصت بما منحك الله من حُبّ.

سرتُ بيدِ أمي أراقب (جواد) وهو يدير عينيه في كل مكان في الساحة فمنذ وقت طويل لم نغادر سكَننَا كانت عيناه تتسعان شيئًا فشيئًا يلتفت من حينٍ إلى حينٍ ثم يدفن وجهه في كتف أمي ربما خوفًا أو فزعًا رغبة في الاختباء أو الدفء وكأنَّ براءته قاصرة عن أن تعي لِمَ تحديدًا حلَّ ميلاده في هذا الوطن حيث تدمَّر كلُّ شيء، بدأ الأطفال يتتابعون في صفوف، تتفاوت أعمارهم بدءًا من السنتين إلى السادسة عشر، يلحق بهم بعض الآباء والأمهات وكلهم يلجون من الباب الرئيسي

لمنـزل الشـيخ، أمـا نحـن فكنـا نتقـدم في المـشي نراقـب مـن بعيـدٍ ونمـضي بخطواتنـا إليـه، وبينـما نحـن في أوجّ انشـغالنا بحلمنـا الـوردي رأينـا منـزل الشـيخ يسـتعر لهبًـا وكأنـه تحـوّلَ مـن روضـة لطلبـة العلـم إلى درك مـن دركات جهنـم، عَمَّـت فـوضى مُفزِعـة في السـاحة وبـدأ الجميـع يركضـون في كلِّ اتجـاه، كلٌّ يجـري إلى أقـرب مهـرب ومفـر، شـاعت بـين فينـة وأخـرى رائحـة المـوت وصـار كل شيءٍ دامِيًـا، كانـت أمـي تلقـف أنفاسـها سريعًـا مـن شـدة الخـوف و(جـواد) عـلى يدهـا يـصرخ وعينـاه منهمرتـان كالسـيل وأنـا أرمـق كل شيء وأتذكـر غصتـي التـي رغـم وحشـتها لم تدفعنـي لمنعهـم مـن مواجهـة المـوت نِـدًّا لِنِـدٍّ. اسـتجمعتُ مـا بقـيَ لي مـن قـوة وصرخـت وأنـا أنتـزع (جـواد) مـن صـدر أمـي إلى صـدري وألـفّ ذراعِـي اليمنـى عليـه ثـم آخـذ بيـدي الأخـرى كـفَّ أمـي وأتشـبث بـه وأجـري دونمـا وِجهـةٍ أقصدهـا سـوى الفـرار مـن الطلقـات الناريـة والقصـف.

بـدأت تحتـل آذاننـا أصـواتُ المدرعـات والدبابـات التـي يقودهـا المحتـل مُختَلِطـةً بعويـلٍ وصراخٍ يُمـزّق القلـب، الـكلُّ يسـعى للهـرب، حولنـا طلقـاتٌ ودَويّ، وأمـي بالـكاد تلقـف أنفاسـها يتثاقـلُ جسـدها تدريجيًّـا، أنظـر إليهـا وأنـا أخبرهـا بنـبرة متوسـلة لتصمـد:

- هانت يا أمي، تحملي قليلًا، أعدك أن ننجو.

كانـت تومـئ إيجابًـا لتطاوعنـي في الركـض وأمـارات الإعيـاء جليـة عـلى وجههـا، أخـاف عليهـا وأخـاف أن يدركنـا العَـدُوّ. ابتعدنـا مسـافة كافيـة عـن الخطـر غـير أنهـا لا تُؤهِّبنـا لِنُوقِـف العَـدْو؛ فـما زالـت مدرعـات الحـرب تتقـدم في طريقهـا إلينـا ولـن يسـعنا الوقـت.

وصلنـا إلى طريـق مهجـور للسـكك الحديديـة، القضبـان والحـصى الفحمية السـوداء في كل مـكانٍ، احتفظنـا بالمسـار بيـد أننـا فقَدْنَـا عربـات القطـار

منذ زمانٍ قد مَرَّ، كان على جانبي السكة بعض الجرحى والقتلى وآثار ملطخة من الدماء، لم أعُد أرى الأعداء إذا ما التفتُّ خلفي مما دفعني إلى المواصلة والمواصلة على أمل النجاة بعائلتي من الهلاك، إلا أن أمي توقفت ساحبةً يديها من يدي مستندة على ركبتيها لاهثة بصعوبة، وهي تقول بنبرة ضامرة:

- لا، أنا لا أستطيع، يجب أن تكملا من دوني.

تسمّرتُ مكاني وأنا أهز رأسي في علامة للرفض، نظرتْ إلى عيني الفزعتين ثم أمسكت يدي مترجية وتابعت محاولة دفعي للمواصلة:

- (جواد) بأمانتك، اهربا هيَّا، واصلا وعِدَاني ألا تلتفتا للخلف، لا تنظرا إليَّ، هيَّا فالوقت يمضي.

أجهشتُ بالبكاء وأنا أخبئ وجه (جواد) في صدري وأُملي عيني من ملامح أمي، كانت تنزف لا أدري متى أو كيف أصيبت، ولا كم تحملت من الوقت أملًا في إنقاذنا، ضمتنا بقوة إليها ما زلت أذكرُ صوت قلبها المرتجف، كيف وهي في خضم ألمها تطمئنني فتمسح على شعري برفق وتقبِّلني، كيف تغالب أمومتها وتعود من جديد محاولة دفعي لأواصل مع أخي دونها!

ولَّيتُ ظهري لها وصوت نشيجي يعلو كلما تقدمنا أكثر وابتعدنا عنها، حتى عاوَدَت أُذُنايّ من جديد أصوات الطلقات النارية والمركبات الحربية فأخذتُ ألتفتُ حولي بحثًا عن مخبأ أتوارى فيه مع أخي إلى حين انتهاء القصف، بدأت نبضات قلبي تتسارع بينما تتردد كلمات أمي الأخيرة على مسامعي: «جواد بأمانتك».

نظرتُ لأخي وأنا أَعِده أن أنقذه مهما كلَّفَني الثمن، وفي خضم حيرتي

لمحتُ عن يميني مبنى ذا سياجٍ حديدية سميكة على مسافاتٍ مُتباعِدة يليها زجاج شفاف مغبَّر به بعض الكسور الصغيرة بالكاد تمكنك من مشاهدة جزء مما يدور في الخلف، لم أكن أعرف تحديدًا ماهية هذا المكان وما الذي يحدث فيه، ولكني رأيت أن من كانوا بداخله هم شعبنا من العمال والذين كُتبَت لهم النجاة لبعض الوقت؛ فقط لكونهم يعملون الآن تحت الرقابة وليسوا بالساحة أو خارج بيوتهم، حَمَلتُ بيدي حصاة وقذفتُ بها في اللوح الزجاجي ليتهشم وأراهم يجفلون بالداخل دونما أن يجرؤوا على الالتفات إلى مصدر الصوت، كنت أنتظر ولو التفاتة تمكِّنني من معرفة إذا ما كان هناك مراقب قريب منهم أم أنه الآن يمر على غيرهم والوضعُ آمن بالنسبة إليَّ؟!

اقتربتُ أكثر لأتفحص المكان من الداخل وأحظى بنفسي على جوابٍ لأراهم كلهم يعملون يدوِّنون أشياء لا أعلمها على أوراق ويضعونها في عربة عليها صندوق ضخم، وكلما أودعوا بداخله رزمة أغلقوه حتى يضعوا التي تليها وهكذا، وجدت أنِّي لن أحصل على فرصة أفضل من هذه كي أُنقِذَ أخي ولأتدبر أنا شأني فيما بعد، أخذتُ أناديهم في الداخل أتوسل إليهم، أحاول استجذاب رحمتهم ليشفقوا عليَّ فيأخذوا (جوادًا) ويخبؤوه معهم لبعض الوقت، بقيتُ أتوسل وأبكي دون أن يلتفت أحدٌ منهم إليَّ، الجميع يخشى العقاب يخشى أن يُحمَل بسببه للكلّ، ولمّا حلّ بي اليأس ضَممتُ أخي أكثر إليَّ وأنا أُنكّس رأسي وهممتُ بالرحيل وليكتب الله لنا ما شاء إن قدر لنا النجاة فراضون وله الحمد، وإن كتبنا شهداءً فلتسامحني أمي لأني لم أُنفِّذ وصيتها وأنقذ أخي من الموت، وقبل أن أوليهم ظهري وأرحل سمعت همسًا فالتفتُّ لأجد فتاة شابة من الداخل تمد يدها لتأخذ الصغير مني بكيت وأنا أشكرها بينما تابع